كانت حياة عائلة إبراهيم، ومعها صالح، في قرية أحمد العامود تسير وفق الخط العام لحياة أهل الريف، غير أن الحرية والعلاقة التي كانت منفتحة داخل قرية البوحسن أوسع بكثير، حيث إخوة إبراهيم في رمز القرى أو ما هو قريب منها في بنت النهر، فهناك نمت بينهم وبين الأقارب والأصدقاء علاقات موروثة أبّا عن جد..

أما في قرية أحمد العامود، فلم تقم علاقة لأم صالح وأم همام إلا مع زريفة (ظريفة) واسم زريفة هذا مستعار من اسم حور للعربية من التركمانية أو الكردية، أصله ظريفة، أطلقه أبو زريفة على ابنته عند الولادة وربما كان من بين أسماء السيدات في كركوك، أو اسم بنت احد شيوخ التركمان أو الكرد في كركوك.. ولأن الأعاجم لا يجيدون لفظ حرف الظاء، فقد قلب الظاء إلى (زاي)، وقلبوا اسم ظريفة إلى (زريفة)، وهكذا استعار العربي أو زريفة اسم بنته على هذا الأساس، وجاء اسمها هكذا.. زريفة، زوجة أحمد العامود.

كانت زريفة تزور والدة صالح في بيتها عندما تتأكد أن إبراهيم خارج البيت، وتزورها أم صالح أو أم همام في بيتها عندما تتأكدان أن أحمد العامود خارج البيت. وكانت هذه الزيارات على نطاق ضيق جدا، وقد تزيد على مرة واحدة متبادلة في كل ستة أشهر مثلا، أو أقل من هذا الزمن قليلا، أو أكثر منه قليلا، على مدى بقاء عائلة إبراهيم هناك مدة تقرب من الأربع سنوات..

كان لأحمد العامود ولد و احد.. ثم جاءه ولد آخر بعد سنتين أو ثلاث سنوات من وصول إبراهيم وعائلته إلى هناك، وقد نشأت علاقة صداقة بين ابن أحمد وصالح، ولاحظ صالح أن فاهم رغم أدبه الجم، متردد وحذر جدا إزاء أبسط العوائق التي تواجهه في الحياة.. ومع أن فاهم كان لما يزل صغير عمر.. وهو وصالح بعمر و احد تقريبا، فإن صفات كهذه غالبا ما تنشأ مع الإنسان أو تولد معه.. ولأن فاهم كان الوحيد بين الأطفال الذين يمتون لصالح بصلة الخؤولة التي أشرنا غليها، ولأنه ليس في القرية من يمت لصالح بصلة عمومة، فقد كان يتخذ من فاهم صديقا له، بل كان الصديق الوحيد له في عرب أحمد العامود.. وعبثا حاول صالح أن يجعله يتصرف خارج تأثير هاتين الصفتين..

كان صالح مصرّا على تعلّم السباحة، وأن لا يعلمه إياها أحد حتى لو كان همام.. وكان مشروع الحويجة بالأساس مشروع ماء أقامته الحكومة لسقي تلك الأراضي، ولكي يوزع ماء المشروع على الأراضي ليسقيها، يلزم أن يجري تقسيم المياه بصورة منتظمة، وكانت المياه في بعض (الشاخات) أي السواقي الكبيرة لا تنقطع إلا نادرا، والشاخة، هي (الشيخة) وتعني الساقية الكبيرة، أو الساقية الأم قياسا بما يتفرع منها من سواقٍ صغيرة.. وكان تقسيم المياه يجري غالبا عندما تنتقل الأرض من مستوى أعلى إلى مستوى أدنى.. ولكي يحصل الجميع على المياه، تحتبس بناظم يوضع على الأرض الأكثر ارتفاعا، ثم يتدفق خلفه الماء في ساقية أقل ارتفاعا من (الشاخة)، وهكذا كان الحال بالنسبة لحصة الماء لأرض أحمد العامود، ومنها الأرض التي كان إبراهيم يزرعها.. وكان الماء المتدفق من صدر (الشاخة) إلى هذه الأرض التي تنخفض عن صدر المشروع قد حفر صدر الساقية وجعلها عند مقدمتها أكثر سعة وأكثر عمقا، وكان عمقها على قياسات عمر صالح الذي مضى على وجوده مع عائلته هناك ما يقرب من السنة حوالي متر وعشرين سنتمترا، بحيث أنه لو سبح هناك لا يغطي

الماء رأسه، ولكنه يمكنه من السباحة، وبعد الدرس الذي أخذه من دجلة قرب قرية بـــريج يـــوم عـــام فوق عمود بيت الشعر، أصر صالح على أن يتعلّم السباحة، وكان يسبح هناك.. وعبثا حاول أن يقنـــع صديقه ابن أحمد العامود بأن يحاول السباحة، إذ كلما ألح عليه صالح ليسبح معه قال له أخـــاف مـــن الماء.. لا أفعلها.. أخشى أن أغرق.. أو أن الشمس حارة أو ما شابه ذلك، ولكن صالح كان يسبح في المكان. وأمر طبيعي أن من يسبح آنذاك، ولدانا أو رجالا، إنما يسبحون عراة.. ,هل يحتـــاج الفـــلاح إلى (لباس) سروال داخلي ليضيف إلى عبء الحياة عليه عبئا جديدا هو ثمن (اللباس) الداخلية؟..

كان صالح يسبح في النهر، وكان يدور يوميا في المكان المتسع نسبيا، وقبل أن ينتهي صـــيف ذلـــك العام تعلم السباحة، بل وأتقنها تماما، ولذلك ففي زيارته لبنت النهر فيما بعد حيث خاله لطيف وجدتـــه وخالاته، وكانت الأولى والأخيرة طيلة الفترة التي قضوها في الحويجة، والتي هـــي بحـــدود أربـــع سنوات، سبح صالح في نهر دجلة بصورة اعتيادية، وكان يسبق أبناء بنت النهر ممن كانوا بعمره، أو بعمر أكثر من ثمان أو تسع سنوات. وقد حصل هذا بعد مضي أكثر من سنتين على غيابهم عن بنـــت النهر..

كان صالح قبل انتقالهم إلى قرية أحمد العامود قد حاول، من غير تكليف من أحد، أن يتعلم الحصـــاد، ولكن منجل الحصاد كان لأحد أخوة إبراهيم، وكان كبيرا وثقيلا على كف وزند من كان عمره ســـت سنوات، ولذلك ما إن حاول على هذا، حتى عقره المنجل، وترك أثرا في رجله، وبقي مرئيـــا حتـــى عندما كبر.. أما هذه المرة وبعد أن أصبح عمره ثماني سنوات أو أكثر، اشترى إبـــراهيم لـــه منجـــل حصاد صغيرا وخفيف الوزن، لأنه في هذه المرة أيضا كان مطلوبا منه أن يقوم بواجب وفق تكليـــف لا محيص عنه..

كان إبراهيم يقول موجها الكلام إلى صالح:

- هكذا حاول، اجمع السنابل بيدك اليسرى، ولتكن قبضتك على سيقان الحنطة اليابســـة مـــن تحـــت السنابل بقليل، ومع المسك باليد اليسرى من هناك يكون المنجل في نفس الوقـــت، أو بعـــد الإمســـاك بلحظة، قد انحدر ليقطع سيقان الحنطة من مسافة قليلة فوق الأرض، وكلما كان القطـــع قريبـــا مـــن الأرض كان ذلك أفضل، وعليك أن تعيد الكرة حتى تملأ يدك اليسرى، وعندما لا تعود يـــدك قـــادرة على حصاد المزيد منها بمعاونة المنجل، ارم ما بيدك على الأرض، وحاول مرة أخرى، وتـــذكر أن (الحصاد) الجيد هو الذي يحصر في يده اليسرى وهو يحصد أكبر (شمالة) كمية من نبـــات الحنطـــة، وأن لا يجعل يده تسقط عددا منها خارج الزرع المجموع فتذهب هدرا، وأن لا يرفـــع ظهـــره وهـــو يحصد إلا بعد زمن طويل نسبيا، وكلما طال زمن انحناء الظهر، استطاع، لو تغالب مـــع غيـــره، أن يسبقه..

تعلم صالح الحصاد بسرعة/ مثلما تعلم الحراثة بالمحراث القديم على الثيران، وكلما حاولت أمينـــة أن تقول لإبراهيم أن صالح صغير، وانه ليس بعمر يمكنه من القيام بهذه الواجبات، أجابهـــا إبـــراهيم أن الصغير يكبر وعليه أن يتعلم، وعندما تقل أن صالح صغير.. تقول أيضا أن همام هو الآخر لم يبلـــغ بعد مبلغ الرجال مما يقتضي التخفيف عنهما، يصك إبراهيم أسنانه غضـــبا، ويقـــرّب يـــده، بعـــد أن

يضغط أصابعها، ويضع مقدمتها تحت حنك أمينة أم همام، ويقول لها بخشونة، وهو (يندسها) تحت الذقن:

- ومن الذي يجمع لنا هذا الزرع؟ اتركي حنانك السخيف، وركزي على ما يجب أن نقوم به لنجمع زرعنا..

كان الحصاد أصعب فقرة على الفلاح بين كل فقرات الفلاحة، وللقارئ أن يتصور حال من يحصد، ويستقبل غبار الزرع وما يتطاير منه، وهو مكب عليه محنيا ظهره، وكيف سيكون عليه حال عينيه وأنفه وجهازه التنفسي وجلده الذي يتصبب عرقا، في حزيران وتموز، وأمر طبيعي أن نقول أن الحصاد يبدأ قبل طلوع الشمس، وفي كثير من الأحيان مع أول ضياء، ونتناول وجبة طعام الإفطار، وهي من لبن وتمر وخبز وزبدة طافية في قدر اللبن، ولا شيء آخر.. ومن الطبيعي أن نقول أيضا أن لا شاي في الحصاد، حيث تبعد الأرض مسافة بعيدة نسبيا عن الدار، وبمناسبة الحديث عن الشاي، فقد كان ثمن كيلوغرام السكر وربع الكيلوغرام من الشاي دينارا وربع الدينار، وهذا يعني أن ثمنها آنذاك يعادل أربعة آلاف دينار في يومنا هذا.. من العام 2001، وكانت أمينة هي الوحيدة التي تجمع المحصول خلف (الحواصيد) الثلاثة: إبراهيم وهمام وصالح، يعاونها أحيانا من تتبرع لمساعدتها من شابات القرية.. كان همام أقل صبرا، ورغم أنه (حاصود) جيد من حيث القدرة على حصر أكبر كمية من الزرع في يده، وكانت أكبر كثيرا من كمية الزرع التي يقدر عليها إبراهيم أو صالح.. ولكنه أقل من صالح بالمطاولة في عدم تعديل قامته، وكان إبراهيم لا يحاول أن يمتحن نفسه في المطاولة، ولكن حصاده وحصاد صالح نظيف، بينما حصاد همام أُل جودة.. وبعد جمع الزرع خلف (الحواصيد) في أماكن بعينها مما تقوم به أمينة، ينقل النبات على ظهر دابة إلى مكان نظيف معلوم، حيث يدرس الزرع هناك بوساطة عدد من الأبقار تربط إلى بعضها بالحبال من رقابها، وتدور حول نقطة وسطية، غالبا ما يشكلها الزرع الباقي خراج أجل الحيوانات، عندما تدرس بأضلافها النبات المرمي على الأرض، أو يدرس بواسطة (جرجر)، والجرجر (رولة خشب) فيها فؤوس متخالفة، يسحبها ثوران أو بغلان، ويركب فوق الجرجر رجل أو شاب أو صبي، وأظن أن التسمية جاءت من الجسم المسحوب أو (المجرور)، ويشكل من يجلس فوق (الجرجر) الثقل الذي يحتاجه لتكون الفؤوس المتخالفة فعالة في سحق الحصول، وعند مستوى معين يذرى الحاصل بالمذراة أو (المرواح) وكلها أدوات فلاحة قديمة، ويساعد الهواء بعد رفع المحصول ونثره أعلى من رأس الإنسان، في عزل الحبوب عن التبن الذي يتطاير في الهواء، ليسقط متجمعا على مسافة، معزولا عن الحبوب..

وأمر طبيعي أن تعلّم الحياة الإنسان أن لا يقف مع اتجاه الهواء وهو يذرو المحصول، لكي لا (يغميه) التبن ويدخل في عينيه ومنخريه.. مثلما يتعلّم صاحب أو راعي الغنم، أن الغنم إذا ما (مدّت) نفشت للرعي في الصيف، ينبغي أن لا تكون الشمس في وجهها، وأن لا يكون قفاها باتجاه الهواء وإنما رأسها.. الخ.

تعلم صالح كل ما ينبغي أن يعرفه الفلاح المتوسط، وربما النبه أحيانا، قبل العاشرة من عمره، وتعلم السباحة حتى أتقنها، وتعلم ركوب الخيل والبغال، وأحيانا حتى البقر، و من الطبيعي أن نقول أن الطفل، وليس الصبي، يتعلم ركوب الحمير أولا، وهو في الرابعة أو الخامسة من العمر، وعندما حاول ابن عم صالح، أن يعلمه ركوب الحمير وهو بعمر أربع أو خمس سنوات، وضرب الحمار على قفاه، سقط صالح على الأرض وكسرت يده اليسرى من المفرق.. حين كانوا في بنت النهر، قبل انتقالهم إلى حويجة التأميم.

****

صبور إذا ما السر في صدره ضمه كذاك الذي في قلبه يكتم الغمة

وذاك الذي يخفي عن الناس جرحه ويحسن من لف الضماد وقد ضمه

يقلى على نار تشبب في الحشى ويخفي لهيبا حارقا حره دمه

يطرز مجدا كل يوم فضيلة يعز بما قد شاءه الأرض والنسمة

يزيح به كربا وفي كل شدة كما قد أنار الضوء في دربه العتمة

ويمنح دفقا صافيا كلما ندى ويحيي به لو شاء من فوره الرمة

هو الله يغنينا عن الأهل كلهم عن الأم والأولاد والخال والعمة

ومهما يكن من لا يكون بمؤمن كما جاهل لا يعرف الفتح والضمة

كذلك أنواع الرجال فمنهم أمين ومنهم لا تكون له ذمة

****

كانت الحياة في حويجة التأميم، تجري وفق الاتجاه العام الذي نوّهنا عنه: زراعة وحراثة وسقي وحصاد.. وكان صالح يشارك في كل العمليات الزراعية، لكنه لم يجرب أن يسافر من قرية إلى أخرى في الليل.. كان لإبراهيم أخت متزوجة من أحدهم في قرية قريبة من قرية أحمد العامود، التي كان إبراهيم يسكن فيها، وكان زوج أخت إبراهيم، جميلة، قد توفاه الله، ولكنه ترك عددا من الأولاد، كلهم أكبر من صالح، بل أن كبيرهم كان متزوجا وأنجب، والآخرين كانوا رجالا، وكان عمر صغيرهم بحدود ثلاثة عشر عاما، أي ما يقرب من عمر همام، ولا يعرف صالح لماذا كلفه عمه في

إحدى الليالي بأن يذهب لوحده إلى بيت أخت إبراهيم، ليبلغ أولادها بأمر ما، لم يعد يتذكر ما هو، ولكنه على أية حال لم يكن بأمر ذي شأن، بحيث يستوجب أن يقوم صالح بهذا ليلا لوحده، وربما أراد إبراهيم أن يعدّ صالح للتعامل مع الليل وهواجسه ومخاطره.. قال إبراهيم:

- ولدي صالح، احمل عصاك، واذهب إلى بيت عمتك جميلة، وابلغ (الولد)، ويقصد أولادها، بكذا و كيت.

وعندما استفسرت صبحة منه كأنها تحاول أن تثنيه، قال لها بحزم:

- اتركي صالح يتصرف..

كان ثقة عمي إبراهيم بي تزداد، وكنت، بالإضافة إلى ما أسمعه من والدتي ومن عمي إبراهيم، ع المعاني العالية، وما ألمسه من تشجيع، ومع كل عمل وتكليف، كأنني أحاول أن أثبت للجميع، أن ثقتهم بي في محلها..

حملت عصاي، واتجهت إلى حيث (عرب) نايف، الابن الأكبر لعمتي جميلة، أخت إبراهيم.. وكلما قطعت مسافة من الأرض مبتعدا عن قريتنا، ومع ابتعاد أصوات كلاب قريتنا، والديكة التي تصيح في وقت العشاء، والتوغل في جوف الليل، ازدادت هواجسي من الليل في تلك التجربة التي أخوضها لأول مرة، وعمري سبع سنوات أو يزيد عن هذا قليلا، ولكن الخوف لا يلغي الخجل من أي تردد إزاء إنجاز المهمة، التي دون إنجازها كأنني أخدش وصف أنني ولد ولست بنتا، ليكون خوفي مشروعا.. ومن هذا، ومن غيره يفهم أن الأهم لا أن لا يخاف الرجل إطلاقا، وإنما، حتى لو خاف، أن يستحي من أن يظهر الخوف، أو يتصرف على أساس أنه خائف.. توغلت في جوف الليل باتجاه قرية نايف.. ومع كل طائر يفرّ من أمامي، وتحدث أجنحته صوتا باصطدامها بالشوك، أو من تحت الشجيرات، قبل أن يطير من عشه على مقربة مني أو من مأواه، كأن قلبي ينزاح من مكانه، ويكاد يفر، بل لو أن أحدا استمع إلى صوت ضربات قلبي، لوجدها لا تقل اضطرابا عن فرار طائر صغير، أو حتى قبرّة تطير مضطربة مرعوبة، وهي تأخذ مأوى في الليل، وتفاجئها خطواتي، وهي تقترب منها من غير أ، تكون قد توقعت ذلك.. ولكنني كنت أمشي، ولا أنثني، ومع كل حالة من هذا النوع، كنت أتحسس العصا التي في يدي، لأستعين بها بما يقوي عزيمتي.. وعندما اقتربت من بيت عمتي، الذي هو بيت نايف، كبير عائلة عمتي جميلة، أخت عمي إبراهيم، ركضت الكلاب باتجاهي، وعندما كنت أبعدها عني، سمعت صوت رجل جاءني من اتجاه البيت الذي أقصده:

- من هذا السواد؟..

وكان هذا هو نداء أهل الريف عندما يريدون الاستفهام عن شخص لا يعرفونه في الليل.. لاحظوا أن المنادي لم يقل: من هذا البياض؟، وإنما قال: من هذا السواد؟، تعبيرا عن حقيقة أن لباس الناس في الريف، بوجه عام، كان اللون الداكن، الذي يترك مرتسمه لونا أكثر من سواد الليل، أو في الأقل، أنه وهو يمشي على الأرض، يبدو أسود قياسا بلون الأرض أو الزرع، وقد كن أعرف هذا النداء، وأعرف الجواب عليه.. قلت:

- صديق

ثم قال:

- ومن هذا الصديق؟

قال ذلك، ولا أشد بأن الرجل المنادي، وكان أحد أبناء عمتي، قد عرفني من نبرة صوتي غير الخشنة التي تدل على سني، ولكنه أراد أن يشجعني بقوله: من هذا الصديق؟

قلت له بصوت أكثر ثباتا:

- أنا صالح..
- يا هلا بصالح، ومرحبا.

وبعد أن طرد الكلاب من حولي، سلّم عليّ كأنه يسلم على رجل مصافحا إياي باليد، وهكذا فعل إخوته، ورحبت بي عمتي، وقدموا لي خبزا ولبنا، واعتذرت، وقلت لهم:

- لقد تناولت العشاء في بيتنا قبل أن آتي إليكم..

وبعد أن أبلغتهم الرسالة، قفلت عائدا، وكان طريق العودة عليّ أسهل، ورد فعلي إزاء ما واجهني وأنا مقبل إلى بيت عمتي، أكثر ثباتا، وأنا أغادر بيتهم. ومع تكرار الحال في التعامل مع الليل، صرت أتعامل معه كأنه نهار.. أليس الإعداد جزءا من إنضاج الشخصية، لتكون مهيأة للتعامل مع الحياة؟ أليس هو الطريق الصحيح، بدلا من ترك الصدفة وحدها تفعل فعلها في هذا؟.. أليست المحاولة والمحاولة.. والمحاولة.. حتى لو أخطأ من يحاول.. هي الطريق الذي لا تعوض عنه المحاضرات، ولا الكتب، ولا النصائح المجردة فحسب؟.. وهل يعوض عن الحياة مثلما هي كتاب أو محاضرة!!؟..

عندما وصلت إلى البيت، وجدت عمي يغط في النوم، وهذا ما كان عليه، حيث ينام في أول الليل، وينام همام وأمينة وأنا بعد العشاء مباشرة.. كلنا ننام بعد العشاء مباشرة، إلا والدتي فإنها تبقى تتابع عمل يومها إلى ما قبل منتصف الليل، وهي عادة بقيت عليها، أو لعله واجبها في البيت، أن تحرس (تنطر) الدار وأهله لينام عمي، وبعد منتصف الليل، أو نحو ذلك، وقبل أن تنام تعطي عملي علما بذلك، ليقوم هو بواجب الحراسة حتى الفجر، ومع الفجر يبدأ العمل.. وقد ينام قليلا بعد صلاة الفجر أيضا.. ولكن عمي إبراهيم كان لا بد أن يستيقظ قبل طلوع الشمس، ويعتبر الأمر معيبا أن تطلع الشمس على رجل وهو ممدد في فراشه، وأمر طبيعي أن ينطبق عليّ وعلى همام هذا الأمر أيضا، وفي الوقت الذي غالبا ما يعنّف همام وهو يحاول إيقاظه عندما يتأخر، لا أتذكر أنه عنفيني يوما على هذا، لأنني لا أتذكر أنني تأخرت في فراشي بعد أن أسمع صوته، إذ كنت أستيقظ قبل أن ينادي، وغالبا ما يقارنني عمي بتصرف همام إذا أراد أن يوبخه، باعتباري الأصغر سنا، ومع ذلك أتصرف وفق الكيفية التي ترضيه..

عدت إلى البيت، ووجدت والدتي خارج البيت واقفة، وجلة، وهي تنتظرني، وما أن رأتني حتى قالت:

- ها يابة، عدت!؟.
- نعم
- عفية ابني.

وعندما دخلنا، أنا وإياها البيت، وسمع عمي صوتينا، صحا ورفع رأسه عن الوسادة.. وقال:

- ها يابة، عدت؟
- نعم، وقد أبلغت (الولِد) بما أوصيتني به
- عفية ولدي..

****

كانت والدتي غالبا ما تضع رأسي في حجرها عندما كنا في رمز القرى، أو في بنت النهر، وحتى في الحويجة، وكانت تحكي لي أغلب ما مرّ ذكره من قصص عن أجدادي، وأبي، وأعمامي وأخوالي، وكانت هي مدرستي ومعلمتي الأساس.. وكانت، وهي تداعب خصلات شعر رأسي بيديها وأناملها الحبيبة، تحكي كل ما قلته وما لم أقله، وتحكي كيف اختارها والدي، واختار معها والدها المتميز في العشيرة ليقترب منه أكثر، مع أن والدي كان قد تربى في بيت خاله، بعد أن توفي والده، وتوفيت أمه، حيث كان الابن الأصغر بين إخوانه، وكيف أن لخاله خمس بنات، ولم ينجب معهن ولدا، وكانت ملكية خال والدي وكرمه متميزين، بالقياس النسبي بما يملكه رجال العشيرة، آنذاك، حيث كان يملك لوحده أرضا واسعة فيها (كردين) وليس كردا واحدا، وكيف كان ضمن بنات خال والدي خلف المصطفى من هي مناسبة من حيث العمر ليتزوجها، ولكن والدك اختارني.. وعندما تقول هذا، كأنها أرادت أن تفخر بأنها متميزة، وفعلا كانت والدتي وأهلها متميزين..

وعندما تتحدث عن أي ميت من القريبين إلى قلبها، كانت دموعها (تسف) وكانت دموعي (تسف) معها أيضا، ومع الأموات، والأعزاء أو الشهداء الذي سقطوا برصاص الجندرمة الترك العثمانيين.. (يسف) دمعها على خالي المعتقل في (نقرة السلمان)، وكان تحكي لي قصته، وتكررها بين حين وآخر حتى حفرت ذكرياتها ليس في عقلي فحسب، وإنما في نفسي أيضا، ومن يومها صرت لا أحب الإنكليز المستعمرين، ولا جندرمة الترك، ومن هذا وغيره يمكن أن يفهم دور الأم، إذا كانت مؤثرة، ومن هذا الدور على ما يبدو، جعل اليهود انتساب الأولاد إلى أمهاتهم أساس يهوديتهم، ومن هذا صاروا يقلقون على مصير ديانتهم المنحرفة و المحرّفة، عندما يحصون عدد المتزوجين من النساء المسيحيات، ويتخلون عن ديانتهم، رجالا ونساء.

****

" من لا يحفظ فرسه لحصان أصيل، قد تلد له بغلا"..

جاءنا عمي إبراهيم بفرس بيضاء، اشتراها من قرية شويش في إحدى سفراته هناك، وقد فرحت بالفرس.. ومن الطبيعي أن أقول أن محاولة ابن عمي مساعدتي، عندما كنت صغيرا، في ركوب دابة، حيث كسرت يدي بسبب صغر سني، ونزق ابن عمي، وعدم ثقل تصرفه، لم تثنني عن تكرار المحاولة، سواء عندما كنت في رمز القرى، أو عندما صرت في عرب أحم العامود.. لقد أتقنت امتطاء ظهور الحمير والبغال أيضا، حيث كان في قرية أحمد العامود عدد منها نظرا لقربها من الجبل، أما رمز القرى فهي بعيدة، وحيث أن وجود البغال أساسا في المناطق الجبلية في شمال العراق، ولكنني لم أتمتع بامتطاء صهوة بغل مثلما كنت أتمتع حين أمتطي الخيول.. ومثلما تعرفون،

يولد البغل هجينا، عندما يجمع حمار إلى فرس ويلقحها.. والبغال لا تتوالد.. وهكذا يقول أهل غناء النايل:

ما جوز من عشرتي، لولا الزاغ[1] يشيب

وإلا الرمل ينغزل، وحتى البغال تجيب (تنجب)

ومن الأمثلة التي يستخدمه العراقيون ضد من لا يعجبهم أمره أو تصرفه، أنهم يقولون.. (تباهى البغل، فقال أن خاله الحصان)، ولم يقل شيئا عن أبيه..

أقول سررت بالفرس التي جاء بها عمي، لأن ما شوقني لأن تكون لدينا فرس، هو أن فاهم بن أحمد يباهي بفرسهم التي هي من نفس أصول خيول جدي رباح.. وتقول والدتي أن لأبيها حصة فيها.. ذلك لأن أم تلك الفرس اتفق أن رباها عامود أبو أحمد، وأن جدي رباح لم يأخذ من عامود ما يقابل ذلك، وإنما اشترط عليه أن يكون شريكه فيها، وفي خلفتها.. أقول كان فاهم يباهي بفرسهم، وهي بحق فرس جميلة.. ولذلك عندما جاءنا عمي إبراهيم بالفرس البلقاء فرحت بها أشد الفرح، وحاولت أن أستخدم خبرتي في امتطاء الدواب والبغال، فقفزت من فوري إلى ظهرها بعد أن استعنت بالركاب، وصرت بعد ذلك لا أستعين بالركاب، وبقيت أمتطي الخيول، في الأغلب، من غير ركاب، بل لا أكون خيالا كما ينبغي، إلا عندما أركب الفرس من غير ركاب، وحبذا لو كانت بلا سرج أيضا، لأن هذا أفضل..

لقد تعلمت ركوب الفرس وجعلت فرصتي فيها هي البداية المتواضعة لإتقان الفروسية فيما بعد..

****

كانت والدتي تردد على مسامعي أن جدك رباح حجز لك عابدة بنت خالك مال الله، وتحاول أن تتحدث لي عن شيء من ملامح عابدة، ورغم أنها افترقت عن عابدة بعد أن تزوجها عمي إبراهيم، وعدنا من بغداد إلى بنت النهر ثم إلى رمز القرى بعد ذلك، والآن نحن في عرب أحمد العامود، وكان تعلقي بعابدة يزداد مع سنوات العمر الإضافية، على ما كان عليه عندما جئنا، حيث استقر بنا الحال في الحويجة.. وكانت لا تتحدث لي عن ملامح عدنان، لأنها لا تخمن منها ما يمكن أن تذكره لي، حيث أن عدنان بعمر صغير، وقد افترق ليكون مع أمه لؤلؤ، بعد أن انفصلت عن خالي مال الله، وكان ذلك بعد أن تركت والدتي بغداد إلى بنت النهر، ولم ترَ عدنان الذي ولد في بغداد.

****

بعد أن حصدنا الزرع، وعزلنا الحب عن التبن، ونقلنا الحبوب إلى أماكن خزنها في جفر أو (لوذ)- والجفر ما يحفر في الأرض، وتعزل فيه الحبوب عن أرضية الحفرة وجوانبها بالتبن ثم تدثر بالتراب، بعد أن يعزل هو الآخر عن الحبوب بالتبن، أما اللوذ، وأظنه من فعل يلوذ، فهو عبارة عن جدران أربعة ليست عالية على هيأة غرفة، وعندما توضع الحبوب فيها، تعزل جوانبها والأرضية وسطحها بالتبن بعد وضع الحبوب أيضا، ثم (يملج) التبن من الأعلى بالطين المخمر، على هيأة

---

[1] الزاغ: طير أسود

(جلمون) ليسهل انسياب ماء المطر من فوقه إلى الأرض.. أو توضع الحبوب في (دوم) غرفة اعتيادية، وتغلق أبوابها.. وكانت حبوب الحنطة وفيرة في ذلك الموسم..

قال عمي إبراهيم، موجها الكلام إلى والدتي:

- صبحة؟ وعندما أجابته، أن نعم، قال
- ينبغي أن أسافر إلى بنت النهر، لأحمل على الدواب كمية من الحنطة، وما يتوفر من الهرطمان (العدس) والباقلاء (صوغة) هدية إلى بيت خالي، وبيت خاله هو بيت رباح، ومن بعده أم مال الله، وما الله، ولكي نعرف شيئا عن أخبار مال الله، وأن يكون معي في السفر صالح أما همام فيبقى عندكم..

قالت والدتي:

- خير إن شاء الله.
- وإذا كان لديك ما توصين به، فهيئي أفكارك..

فرحت بفكرة السفر إلى بنت النهر، وكان عمري ثماني سنوات، أو أكثر قليلا، وكانت لي يومذاك ثلاثة أثواب (دشاديش)، واحد للعمل، وآخر شبه مستهلك، والثالث جديد لم أدشنه، إلا مرة واحدة، ربما في أحد الأعياد، وصرت من يومها أغسل بنفسي (دشداشتي) الجديدة في الساقية يوميا، وأنشرها فوق الشوك لتجف.. وعندما أتحدث عن أثوابي، تذكرني بأننا عندما كنا في رمز القرى.. قبل مجيئنا للحويجة جنوب كركوك.. كنا نلعب (طواب) وتعني لعبة المدافع، وكانت لعبتنا المفضلة بعد غروب الشمس مباشرة، وتتكون هذه اللعبة من حصى كبير في العادة، يحفر له داخل الأرض ولا يظهر من جزئه الأعلى إلا قليلا، وفي الوقت الذي كنا نضع فوقه جمرة، كانت غالبا وأفضل ما تكون من روث الجمار (البعرور) الذي يكون شكله كرويا أو أسطوانيا شبه منتظم، وعندما نضع جمرة واحدة منه فوق قاعدة (الطوب) الحصاة المدفونة في الأرض، نضربها في الوقت نفسه بحصاة أخرى مسطحة بقوة ولكن من فوق الجمرة، وتكون نتيجة هذه الضربة فرقعة بسيطة يتطاير معها الشرر من الجمرة، وهكذا نعيد الكرة ونحن نتبارى فيما بيننا.. قد احترقت (دشداشة) ثوب أحدهم، فجئته بثوب من أثوابي الثلاثة، ولكن من سوء الصدف أن الثوبين الآخرين اللذين كانا آخر ما أملك من أثواب، احترقا في اليومين التاليين، وبذلك بقيت من غير ثوب.. وعندها فقط لاحظت أن وجه أمي متجهم، وأنها همّت بأن تبكي، وبعد أن لاحظت أن أثوابي الثلاثة قد نفدت: الأول أعطيته لأحدهم، والثوبان الآخران احترقا، استطعنا بالكاد أن نجد لدى همام بقايا ثوب استعرته من لأرتديه، ذلك لأن همام كان يستهلك أثوابه قبل أن أستهلك أثوابي، وهي بنفس العدد، ريثما يصلنا قماش ثوب واحد من بنت النهر لتخيطه والدتي، وقد تألمت بدوري لألم والدتي، ولكنها بعد أن لاحظت ذلك عليّ ربتت على كتفي وقالت: لا عليك، غدا صباحا، وربما ظهرا عندما يصل القماش، سأخيط لك ثوبا أفضل من أثوابك الثلاثة..

أعود لأقول أنني كنت أغسل ثوبي الجديد في الساقية يوميا، وأنشره فوق الشوك أو على حبل ليجف تهيؤا للسفر.. حتى جاء موعد سفرنا، وقد حملّنا عدة دواب بالحنطة وحبوب أخرى، وتوجهنا إلى

الفتحة ومنها وبعدها إلى بنت النهر، وقبل أن نصل إلى بنت النهر، أنزلنا أحمالنا عند خالة لنا، هي بنت عم والدتي، في منطقة قبل بنت النهر.. ودخلنا في دارهم (مقيل)، وقدمت لنا دبسا وخبز شعري، كان كل ما تملك آنذاك، ولكن خبز الشعير لم يكن أسود، ولا حتى أسمر، وفق ما معروف عنه من وصف، وإنما أقرب إلى لون خبز الحنطة، وكان من الشعير الأبيض، ولكنه لم يكن أشقر مثل خبز الحنطة.. ومن الطبيعي أن يتحول خبز الشعير، في ذاك الحر الشديد لبعض أيام أيلول، إلى ما يشبه القحف في صلابته، ولكي يؤكل على تلك الصورة، كان من يأكله بحاجة لأن يستعير (بطانة) فم بعير.. اعتاد أكل النباتات الشائكة والخشنة.. ولكي نتجنب مثل هذه الاستعارة.. فقد رطبنا الخبز بقليل من الماء، ثم (وقعنا به) على الدبس، ونحن في جوع شديد.. ومن يومها صارت تلك الأكلة ألذ أكلة أتذكرها، رغم أنني لا أهتم كثيرا بالطعام: خبز الشعير اليابس المبلول، مغمسا بالدبس مع اللبن المخلوط بالماء، ليشرب غموسا لـ (اللقمة)، والذي من غيره يصعب ازدراد لقمة خبز الشعير مع الدبس..

وصلنا إلى بنت النهر، ورحبت بنا جدتي وخالي عبد اللطيف، وخالاتي، وبقينا عندهم عدة أيام حتى صرنا في شهر تشرين الأول. وكنت في النهار أتنقل بين الشواطئ على (شارب) دجلة الشرقي، حيث الرقّي والبطيخ والخيار واللوبيا، ثم نعود في الليل إلى بنت النهر.. والعكس صحيح ليلا ونهارا..

سافرت أنا وعمي إبراهيم عائدين إلى الحويجة، ولكن قبل الوصول إلى هناك بتنا ليلتين في البيجي، وكان عمي قد اشترى تمرا من هناك، ووضعه في حملين على دابتين، وصادف أن حصل معه ما يؤخره عن السفر معي.. قال:

- ولدي صالح، سوف أتأخر عدة أيام في البيجي، نظرا لما يقتضيه عمل استوجبته الظروف، وأنا أعتمد عليك.. فإنني سأوازن لك الأحمال على ظهر الدابتين، وتتولى أنت إيصالهما إلى الحويجة.. ولدي ضع الذهب الذي بعثت به جدتك إلى أخواتك، وخط عليه فتحة جيب ثوبك كي لا يسقط شيء منه.

وعندما قلت له:

- لقد وضعتها في علبة لا تنفتح، إلا بعد أن يبرم غطاؤها عدة مرات.. قال:
- ليكن..

ثم أوصاني بأمور تخص البيت ولزرع والسقي والغنم.. وغير ذلك، مع أنه لن يتأخر إلا بضعة أيام.

سافرت من البيجي باتجاه الفتحة، ومنها إلى الحويجة، حيث بيتنا في عرب أحمد العامود، وقد أوصلني عمي إبراهيم إلى خارج مدينة البيجي، ثم قفل راجعا، بعد أن أودعني بقبلات على خدي وجبيني.

يتبع

شبكة الرافدين الأخباريه